

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

دكتور قارش محمد

جامعة الحاج لخضر- الجزائر.

ملخص :

إن مسألة التفاعل بين الثقافة والاتصال والتكنولوجيا ،ولدتها التطورات المتسارعة التي عرفتها وسائط الإعلام، التي تجاوزت الحدود الجغرافية والزمانية ،وبالتالي سهلت من سرعة التداول التي أصبحت البنية الأساسية في تكوين المجتمع، في ظل العولمة التي تسعى إلى تنميط الثقافة مروراً بالثورات الستة للاتصال (ثورة اللغة، ثورة الكتابة ، ثورة الطباعة، ثورة الصورة و التلغراف، ثورة المعلومات ، ثورة شبكة المعلومات أو الطريق السريع للمعلومات).

لقد قدمت كل ثورة تغييراً في الفكر الانساني و في تنظيم المجتمع أدى إلى تراكم ثقافي وحضاري افرز اليوم ثورة في المعلومات، كما إن الهوية كانت بمثابة المحك لكل مجتمع يمر بهذه التحولات الثقافية في ظل ما يعرف بمسألة نهاية التاريخ عند فرانسيس فوكوياما، وصراع الحضارات عند هنتنغتون وصولاً إلى الحتمية التكنولوجية ، أو التفسير التكنو اتصالي للتاريخ عند مارشال ماكلوهان ، والتي قسم فيها التاريخ الإنساني إلى أربعة مراحل (مرحلة طفولة البشرية ثم مرحلة الشباب الأول للبشرية ، وعهد الشباب الثاني ،وأخيراً عهد الشباب الثالث) والمرحلة الأخيرة هي الفترة التي ارتبطت بظهور التقنيات الإلكترونية مع ظهور التلفزيون ،وقد أدى طرح المسألة الثقافية في ظل العولمة إلى ظهور ما يسمى بالهيمنة الثقافية،أو السيطرة الثقافية التي تسعى القوى العظمى أي دول الشمال إلى فرضها على الدول المتخلفة (دول الجنوب) .

The issue of interaction between culture, communication and technology, emerged as a result to the rapid development in the fields of mass media, that exceeded the geographical and thus it facilitated the access to information that has become the basic structure in the forming society during globalisation that seeks to standardize culture going through the six revolution of communication (revolution of language, revolution of writing,

revolution of printing, revolution of picture and telegraph, revolution of information, revolution of internet or the rapid access to information).

Each revolution has participated in changing human thought and in organizing the society which has led to a cultural and civilized accumulation that has burst today a revolution in information, also identity a matter of question to any society that goes through such cultural modification under what is known as the End of History for Francis Fukuyama, and Conflict of Civilizations for Huntington, arriving to technology determination or techno-communication interpretation to history for Marshall McLuhan, where he divided human history into four periods (period of human childhood, then the period of the first youth of humanity, and the episode of the third youth, and the last episode is the period that is linked with the appearance of electronic techniques and by the emergence of these techniques, the television also appeared, under the globalization, the cultural issue had led to the appearance of what is called cultural hegemony or cultural dominance that the great powers (i.e. northern countries) try to impose on the third world countries (i.e. southern countries).

عرف هذا العصر تحولات عديدة من بينها القفزة النوعية التي حصلت على مستوى تكنولوجيات وسائط الإعلام مما أدى إلى تجاوز الحدود الجغرافية والزمانية، والذي أثر في سهولة وسرعة نقل وتداول المعلومات التي أصبحت البنية الأساسية في تكوين المجتمع، إذ تشير الإحصائيات في و.م.أ إلى زيادة نسبة العمل في مجال المعلومات من 10% من حجم القوى العاملة إلى حوالي 50%، وتناقص عدد العمال في المهن الصناعية إلى نحو 20% مما أدى بالضرورة إلى التحول من مجتمع صناعي إلى مجتمع المعلومات، ومن هنا فإن قاعدة المعلومات والشبكات الإعلامية المتعاظمة تقدم فرصة غير مسبوقة في تاريخ البشرية، وقد تشكل مشروعا للارتقاء بنوعية حياة الإنسان بعيدا عن حالة التنميط الكوني للثقافة باعتبار أن هذه الأخيرة في أي مجتمع إنساني هي حصنه المنيع الذي يمنحه استمرارا دون فتور، وبقاء متزنا من غير انكفاء أو ارتواء، إنها سرتقدم المجتمع الإنساني وتحضره في كل مكان، وهي رسالته في الحياة، ورؤيته للأحداث وتصرفه إزاء المواقف، وهذا كله

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

في ظل المتغيرات التكنولوجية والعولمية، والمعرفية، من هنا تطرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى تستطيع الثقافة استيعاب متغيرات الثورة المعرفية وتجعلها في خدمة الإنسان؟ كما تبرز من خلال هذه الإشكالية جملة من التساؤلات وهي: هل هناك دور ثقافي للإعلام والاتصال في عصر التكنولوجيا؟ ما هي وظائف الإعلام الجماهيري والثقافة الجماهيرية في ظل الثورة التكنولوجية؟ ما هي علاقة الهوية الثقافية بمسألة نهاية التاريخ وصراع الحضارات في ظل العولمة؟

الدور الثقافي للاتصال والإعلام في عصر التكنولوجي

إن مسألة التفاعل بين الثقافة وتقنيات الإعلام الجديد التي أفرزتها التطورات الحاصلة في ميدان تكنولوجيا الاتصال وثورة المعلومات، توضح التطور الهائل والفرق الشاسع بين سرعة الصوت التي تبلغ 340 متر في الثانية وسرعة الضوء التي تبلغ 300 مليون متر في الثانية، ويوضح هذا الشوط المهبول الذي قطعته البشرية في حقل الاتصال الإنساني والسرعة الفائقة -سرعة الضوء- التي باتت تنقل بها الرسائل الاتصالية بين كافة البقاع والأنحاء من سطح هذا الكوكب.

لقد تطور النشاط الاتصالي الإنساني من نشاط غريزي اكتسبه الإنسان بيولوجيا مثل باقي الكائنات الحيوانية الأخرى إلى نشاط ابتكاري يمثل صلب التطور الحضاري للإنسان. فبينما استمر الاتصال الغريزي بين الكائنات الحيوانية ينظم فقط وجودها في الحاضر دون أي ارتباط بالماضي أو استشراف للمستقبل، كان الاتصال الإنساني يرتقي دائما بالوجود البشري و يقيم جسور الوصل والتواصل ما بين الماضي والحاضر والمستقبل.

في خضم ذلك كانت تكنولوجيا الاتصال المتغير الحاسم الذي أتاح للإنسان هذا التميز والتفرد، لأنه عندما تمكن الإنسان من اختراع العديد من الأدوات والوسائل التي ساهمت في جمع المعلومات الاتصالية وحفظها وإنتاجها ونقلها واستقبالها، تحول الاتصال حينئذ إلى نشاط ابتكاري وقوة رمزية فاعلة في التطور الحضاري للبشرية، والذي شكل بدوره فيما بعد النسق الثقافي لأي مجتمع، ومن جانب آخر أضافت تكنولوجيا الاتصال إلى الإنسان قوات صوتية وبصرية وعقلية

وقوات آلية بمقدار ملايين الأضعاف. ولعل التطور المذهل في حقول تكنولوجيا الاتصال، أتاح لها الارتباط بكافة مجالات الأنشطة الإنسانية، وجعل المبتكرات التكنولوجية الاتصالية تبدو في حقل الثقافة من المسلمات في المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث⁽¹⁾.

إن الدراسة الأكاديمية المتخصصة لتكنولوجيا الاتصال وعلاقتها بالثقافة تغوص في البدايات الأولى لتلك التكنولوجيا والمبادئ العلمية التي تأسست عليها، والتطورات المتلاحقة التي مرت بها حتى بلغت هذا التقدم الفائق⁽²⁾.

كما تقدم التصنيف العلمي لمبتكرات هذه التكنولوجيا التي تتنوع ما بين مبتكرات لجمع المعلومات الاتصالية أو إنتاجها أو نقلها أو استقبالها، وتعرض لتأثيراتها على النشاط الاتصالي الإنساني وعلى المجتمع الإنساني بأبعاده الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، ويجدر بنا هنا أن نعرف بالمصطلحين: التكنولوجيا والاتصال.

فمفهوم التكنولوجيا يشير إلى "الأساليب الفنية البشرية في صناعة وعمل الأشياء"⁽³⁾ ونظرا لكون هذه الأخيرة تعني ابتكار الإنسان للأدوات والآلات والأجهزة، فإن التكنولوجيا بذلك تصبح لصيقة بالنشاط الإنساني منذ بدء الخليقة، وذلك انطلاقا من الرؤية التي تعرف الإنسان باعتباره "الحيوان صانع الأدوات"⁽⁴⁾.

ونظرا لأن الأدوات في أغلبها تتسم ببساطة التصميم، بخلاف الآلات والأجهزة التي تتسم بقدر من التركيب والتعقيد. فإن ذلك يقود نحو إمكان وصف التكنولوجيا التي ابتكرها الإنسان في العصور الأولى بالبداية، وتكنولوجيا العصور الحديثة بالتكنولوجيا المتقدمة، بينما توصف تكنولوجيا الزمن المعاصر بالفائقة.

ونظرا لارتباط التكنولوجيا بالبدايات الأولى للإنسان، فإن ذلك يوضح بأن

(1) محمد محفوظ، تكنولوجيا الاتصال، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثالثة، 2005، ص. 02.

(2) نفس المرجع، ص 03.

(3) أر.إيه. يوكانان، الآلة قوة وسلطة التكنولوجيا والإنسان منذ القرن 17 حتى الوقت الحاضر، ترجمة شوقي جلال، ص 15.

(4) محمود محفوظ، نفس المرجع السابق، ص 09.

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

التكنولوجيا كانت سابقة على العلم بمفهومه المتعارف عليه، ولكن هذا سبق لا ينطبق إلا على التكنولوجيا البدائية بينما يصبح السبق للعلم على كل من التكنولوجيا المتقدمة والفائقة اللتين تنطلقان بالضرورة من نظريات ومبادئ علمية راسخة⁽⁵⁾.

وهذا ما تفره بعض التعريفات التي تشير إلى أن التكنولوجيا هي استخدام العلم في الأغراض التطبيقية للصناعة⁽⁶⁾.

وكما هو واضح فإن هذا التعريف يتماشى مع مدلول كل من التكنولوجيا المتقدمة والفائقة باعتبارهما تطبيقاً للنظريات العلمية من أجل الاستفادة بها في مجال الصناعة، بل ومجالات النشاط البشري.

ولعل ما سبق يوضح بأن ثمة اختلاف في المفهوم بين مصطلح العلم ومصطلح التكنولوجيا، فهذا الأخير يشير إلى "دراسة العالم المادي"⁽⁷⁾ بينما يشير مفهوم العلم إلى "الفهم النسقي والمنهجي الذي يحقق للإنسان" معرفة واستنباط قوانين الطبيعة"⁽⁸⁾. وبالتالي فثمة فرق جوهري بين مفهوم العلم ومفهوم التكنولوجيا. فالأول يعني معرفة العلة والثاني معرفة الوسيلة⁽⁹⁾.

بمعنى آخر التكنولوجيا هي الوجه التطبيقي أو الإمبريقي للعلم بينما العلم هو الخلفية النظرية المنهجية للتكنولوجيا فنظرية إسحاق نيوتن عن الجاذبية ينتهي إلى العلم ولكن استخدامها لدفع الصواريخ في أرجاء المجموعة الشمسية ينتهي إلى التكنولوجيا. وبالمثل فإن معادلة "ألبرت اينشتاين" الشهيرة حول التكافؤ بين الكتلة والطاقة والتي تنص على المعادلة التالية: الطاقة = الكتلة × (سرعة الضوء) فهي تنتهي إلى العلم، أما الاستعانة بها لتصنيع القنبلة النووية لاستخدامها في الأغراض العسكرية أو لتصنيع المفاعلات النووية لاستخدامها في

(5) نفس المرجع، ص 09.

(6) قاموس أكسفورد الحديث، (انجليزي، انجليزي عربي) منشورات جامعة أكسفورد، أكسفورد، 1999، ص 769.

(7) أر، إيه، يوكاتان، نفس المرجع السابق، ص 18.

(8) قاموس أكسفورد الحديث - ص 664.

(9) عبد الفتاح عبد النبي، تكنولوجيا الاتصال والثقافة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة 2، 1999، ص

الأغراض المدنية، فهو من صميم التكنولوجيا، وهذا التمايز بين مفهومي العلم والتكنولوجيا يوضح بأنه إذا كان العلم يمثل الروح فإن التكنولوجيا تمثل الجسد، وإذا كان العلم يشير إلى الأفكار فإن التكنولوجيا تشير إلى الأفعال، وإذا كان العلم هو النظرية فإن التكنولوجيا هي التطبيقات المتعددة لهذه النظرية.

وخلاصة القول بشأن ما سبق أنه يمكن تعريف التكنولوجيا على أنها استخدام الإنسان للعلم في الأنشطة العلمية والتطبيقية والإنسانية⁽¹⁰⁾.

أما مفهوم الاتصال فقد استخدمت هذه الكلمة في مجالات عديدة وعلى مستويات مختلفة. فهي تدل على الكلام أو الاستماع. كما أن لها دلالات عامة ودلالات أكاديمية وثقافية. وقد أفضى ذلك إلى إثراء مجال الاتصال من جهة وتنوع المعاني المرتبطة بكلمة اتصال من جهة ثانية، كما تأثرت هذه المعاني أيضا بتداخل الاتصال مع كافة مجالات المعرفة والأنشطة الإنسانية الأمر الذي أدى إلى تعدد تعريفات معنى الاتصال⁽¹¹⁾.

فهناك من عرف الاتصال بأنه العملية أو الميكانيزم الذي من خلاله توجد العلاقات الاجتماعية وتتطور ويشمل كل الرموز التي يخزنها العقل كذلك وسائل نقلها والاحتفاظ بها. كما يتضمن تعبيرات الوجه والاتجاه والإشارات ونغمة الصوت والكلمات والكتابة والطباعة والسكك الحديدية والتلغراف والتلفزيون، وكل شيئا آخر قد يختصر الوقت أو المسافة⁽¹²⁾.

وفق هذا التعريف نجد أن معنى الاتصال يتسع حتى ليكاد يشمل كل نشاط إنساني على مستويات متعددة، وقد استخدمت كلمة اتصال بنفس هذا المعنى الواسع تقريبا لتشمل كل الإجراءات التي من خلالها يؤثر عقل على عقل آخر. وهناك بعض الباحثين من ركز على مكونات العملية الاتصالية كهارولد لازويل الذي يرى أن أفضل طريقة لفهم عملية الاتصال هي الإجابة على

⁽¹⁰⁾ محمد محفوظ، نفس المرجع السابق، ص 11.

⁽¹¹⁾ عن إبراهيم مكي وبركات عبد العزيز محمد، المدخل إلى علم الاتصال، منشورات ذات السلاسل، الكويت،

الطبعة الأولى، 1995، ص 11.

⁽¹²⁾ نفس المرجع، ص 30.

اشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

التساؤلات الآتية: من؟ يقول ماذا؟ وبأي وسيلة؟ ولمن؟ وبأي تأثير؟⁽¹³⁾. ويشير مصطلح تكنولوجيا الاتصال إلى التجهيزات والوسائل والأدوات التي اكتشفها أو اخترعتها البشرية لجمع وإنتاج وبث واستقبال وعرض المعلومات الاتصالية بين المجتمعات والأفراد⁽¹⁴⁾.

الثقافة وثورات الاتصال الستة:

تتابعت ثورات الاتصال عبر مختلف مراحل الوجود الإنساني، وكل ثورة منها قدمت وسيلة يمكن من خلالها إحداث تغيير كبير في الفكر الإنساني وفي تنظيم المجتمع وتراكم الرصيد الثقافي والحضاري للبشرية. فكما انتقلت البشرية من عصور الصيد المشتتة إلى عصور الرعي المترحلة، فعصور الزراعة المستقرة ثم عصور الصناعة المتحضرة ووصولاً إلى عصر ما فوق التصنيع الحالي (عصر المعلومات والصرفه والمعرفة) بكل تطلعاته إلى الكون الفسيح.

فقد توالى أيضاً ثورات الاتصال لترافق ذلك الصعود الإنساني في مدارج الرقي، بحيث شكلت كل ثورة من هذه الثورات مرحلة فاصلة في تاريخ تطور الاتصال الإنساني، قفزت به إلى الأمام نحو المزيد من التقدم على النحو التالي:

1- ثورة الاتصال الأولى (ثورة اللغة): بدأت ثورة الاتصال الأولى بعدما ظهرت اللغة لتعبر في صياغة عبقرية عن رغبة الإنسان في بناء إطار موحد للتفاهم والمعاني المشتركة وبالتالي كانت ثورة الاتصال الأولى هي ثورة اللغة.

2- ثورة الاتصال الثانية (إكتشاف الكتابة): بدأت ثورة الاتصال الثانية عندما ظهرت الكتابة كوعاء تاريخي منضبط لحفظ وتسجيل المعاني البشرية المشتركة وبالتالي رصيدها الثقافي وإنقاذها من النسيان والضياع وبالتالي كانت ثورة الاتصال الثانية هي ثورة الكتابة التصويرية أولاً ثم الكتابة الألفبائية ثانياً.

3- ثورة الاتصال الثالثة (إختراع الطباعة): بدأت ثورة الاتصال الثالثة عندما ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر، وأتاحت للغة المكتوبة لأول مرة قدراً كبيراً

⁽¹³⁾ صالح خليل أبو إصبع، الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، عمان، الطبعة الثانية، 2004، ص 17.

⁽¹⁴⁾ محمد محفوظ، نفس المرجع سابق، ص 16.

من الانتشار والذيع، يتجاوز الدائرة المحدودة لأنشطة النسخ اليدوي بمعرفة الخطاطين، وينطلق بها إلى الآفاق الواسعة لأنشطة الطباعة الآلية بواسطة المطبعة... وبالتالي كانت ثورة الاتصال الثالثة هي ثورة المطبعة.

4- ثورة الاتصال الرابعة (تجاوز الحدود الزمكانية): رغم أن المطبعة أتاحت للغة المكتوبة الفرصة لتتخطى حاجز المكان والمسافة. لكن في المقابل ظلت اللغة المنطوقة عاجزة عن تخطي هذا الحاجز، حتى جاءت ثورة الاتصال الرابعة في منتصف القرن التاسع عشر. فظهر التلغراف ثم التليفون ثم الراديو، فحطمت بذلك حواجز الجغرافيا. ثم ما لبثت حواجز الزمن أن تحطمت هي الأخرى، عندما ظهرت آلة التصوير الفوتوغرافي لتسجل وتحفظ وتجمد اللحظة المرئية المنقضية، وسرعان ما تطورت السينما لتحرر تلك الصور الثابتة من جمودها وتمنحها الحركة، ثم ظهر التلفزيون ليزيل حاجز الزمن تماما وينقل اللحظة الحالية بكل مجرياتها ووقائعها... لقد كانت ثورة الاتصال الرابعة هي ثورة الكهرباء والكهرومغناطيسية واللامكان واللازمان.

5- ثورة الاتصال الخامسة (ظاهرة المعلومات): بحلول النصف الثاني من القرن العشرين بدأت ثورة الاتصال الخامسة على مرحلتين. تمثلت المرحلة الأولى في ظهور الحاسب الآلي كذاكرة آلية ذكية لحفظ وتحليل كميات مهولة من المعلومات، وتمثلت المرحلة الثانية في إطلاق الأقمار الصناعية كعيون وأذان صناعية خارقة معلقة في السماء لنقل النصوص والصور والأصوات.

ولقد أدى الاندماج ما بين تكنولوجيا الحاسب الآلي وتكنولوجيا الأقمار الصناعية إلى تفجر ما يسمى ثورة المعلومات، والتي تتمثل في المعالجة الآلية للمعلومات وتخزينها واسترجاعها باستخدام الحاسب الآلي في أقل حيز متاح وبأسرع وقت ممكن. وسريان تلك المعلومات وتدفقها عبر الدول والقارات والمحيطات بطريقة فورية (مكتوبة ومسموعة ومرئية) باستخدام الأقمار الصناعية. مما أدى إلى النمو الهائل المتضاعف في حجم الإنتاج الفكري وشتته وتنوع مصادره وتعدد أشكاله، واتساع مجالاته ليشمل كافة مجالات النشاط الإنساني. الأمر الذي أدى تحول أنشطة إنتاج المعلومات إلى صناعة متكاملة. وبالتالي كانت ثورة الاتصال الخامسة

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

هي ثورة المعلومات.

6- ثورة الاتصال السادسة (مشكلة المعلومات): يطرح علينا العصر الراهن ضرورة الاعتراف بأن ثمة ثورة سادسة للاتصال أصبحت واقعا متشكلا تحت أنظارنا في صورة شبكات المعلومات والطريق السريع للمعلومات. وتمثل شبكة الانترنت النموذج الأمثل لشبكات المعلومات، ولذلك يطلق عليها شبكة الشبكات، لما تضمنه من عدد مهول من الشبكات المترابطة. كما أنها تمثل تلخيصا لكافة فاعليات وسائل الاتصال، بما توفره من قدرة على الجمع بين كافة الأشكال الاتصالية (النصية والصوتية والمرئية) وقدرة على الجمع بين كافة الأنواع الاتصالية (الإعلامية والاتصالية والمعلوماتية).

ورغم القدرات الهائلة لشبكة الانترنت مقارنة بكافة وسائل الاتصال التي سبقتها، إلا أنها تمثل الطريق غير الممهد مقارنة بالفاعليات الطموحة المأمولة للطريق السريع للمعلومات، ذلك الطريق الذي قررت الدول الصناعية السبع في اجتماعها في بروكسل عام 1995 إنشاءه من خلال الربط بين نظم المعلومات في كل الدول المتقدمة باستخدام شبكة عملاقة من كابلات الألياف الضوئية. وذلك بتكلفة تزيد عن الألف مليار دولار (تريليون دولار).

وبالتالي... فإن ما تطرحه فاعليات شبكة الانترنت في عالم اليوم، يمثل النموذج المصغر لما سيكون عليه المستقبل القريب مع فاعليات الطريق السريع للمعلومات، المتمثلة في القدرة على الجمع بين كافة الأشكال والأنواع الاتصالية، ونقلها إلى كافة أرجاء العالم بسرعات عالية. الأمر الذي سيؤدي إلى تجاوز الطريق لوظيفة نقل المعلومات. والانتقال إلى وظيفة نقل المعرفة. وهذا يوضح... بأن ثورة الاتصال السادسة التي مازالت ملامحها تتكشف يوما بعد آخر... هي ثورة المعرفة⁽¹⁵⁾.

الهوية الثقافية ومسألة نهاية التاريخ وصراع الحضارات

يشهد العالم منذ هجمات يوم الثلاثاء 11 سبتمبر 2001 التي استهدفت مركز التجارة العالمي والبنتاغون -دون الخوض في تفاصيلها وما قيل حولها-

⁽¹⁵⁾ نفس المرجع، ص 16.

تحولات دولية صاخبة وصعبة إن كان على صعيد الولايات المتحدة الأمريكية أو على العالم من أقصاه إلى أدناه ولعل أبرز ما في المشهد هو تسلم أمريكا قيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وخروج الدول الاشتراكية من فلكه وتكريسها لنظام عالمي جديد أكثر صراحة وأشد انقيادا لصالح الولايات المتحدة الأمريكية وعولته وفق الرؤى الأمنية الإستراتيجية لما بعد يوم الثلاثاء 11 سبتمبر 2001.

إذا كانت البنية الكونية للقوة في الحرب الباردة ثنائية فإن ما يميز البنية الراهنة هو إعادة تشكيلها وفق صيغ ثقافية وحضارية ولعلنا إذا رجعنا قليلا إلى الوراء لوجدنا التحالف قائما بين النظام العالمي الجديد و مسألة نهاية التاريخ. ففي جوان 1989 نشر فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama مقالة بعنوان نهاية التاريخ The End of History في ثلاثين صفحة في مجلة أمريكية تدعى "ناشيونال انترست" interestnational وقد أثارت هذه المقالة نقاشا مدهشا على المستوى العالمي وأصبح فوكوياما مشهورا في العالم أجمع وهو المدير المساعد لإدارة الموارد البشرية لوزارة الخارجية الأمريكية الذي ولد عام 1952 وحصل على شهادته من جامعتي "كورنيل و هارفرد" وهو متخصص في التوقعات السياسية ومستشار لدى مؤسسة راند للابحاث rand corporation (الراند كوربوريشن) وهو أمريكي الجنسية ياباني الأصل.

إن المنحى الذي انتهجه الكاتب مرتبط بالعلم السياسي أو علم العلاقات الدولية فهو يتكلم عن عولمة أو توحيد الإنسانية ضمن الليبرالية الديمقراطية، كما أن فكرة نهاية التاريخ ليست من أبتكاره أساسا وإنما استقاها أساسا من افكار الفيلسوف الالماني "هيغل"، ويعلن فوكوياما إن التصور الإيديولوجي للإنسانية أفضى إلى تدويل الديمقراطية وتعميمها على الكون وكأنها الشكل النهائي لأي حكم سياسي.

إن طبيعة هذه المقولة نهاية التاريخ ذات طابع فلسفي يرجع أصلها كما قلت إلى "هيغل" ثم أخذها عنه كارل ماركس وأعطاها أبعادا مادية تاريخية وهذا ما أقرببه فوكوياما مع فارق كبير هو انه رد الاعتبار لهيغل على حساب ماركس.

اشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

ونهاية التاريخ تبدأ عندما يزول التناقض "السالب" بين الفكر والواقع وبين الإنسان والإنسان وبين الطبيعة والإنسان، وبين ثقافة وثقافة أخرى، فإذا كان التاريخ قد انتهى بالنسبة لهيغل عام 1806م في معركة "بيننا" بتصالح العقل مع الواقع وانتصار نابليون ممثلاً للطبيعة الإنسانية المجسدة لمبادئ الثورة الفرنسية -إذا كان الأمر كذلك- فإن التاريخ انتهى في نظر فوكوياما عام 1989م، وفي هذا التاريخ وصلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى مرحلة حيث يمكن للفرد أن يسد حاجاته دون أن يعمل أكثر مما يريد، وهذه الطريقة الأمريكية هي نمط العيش الخاص لمرحلة ما بعد التاريخ⁽¹⁶⁾.

ويعترف فوكوياما بأن الإسلام هو الوحيد الذي اقترح دولة ديمقراطية كحل تعويضي وبديل الليبرالية والشيوعية ولكن لا يمكن لهذه النظرية تعبئة غير المسلمين إذ أن جاذبيتها محدودة على سلالة وأمة هي غير قادرة -على حد تعبيره- أن تولد حركة ذات أهمية ومعنى كوني ناسيا أن الإسلام رسالة كونية ورسالة عالمية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ويري فوكوياما أن العالم كان نظامين فانتهى نقيض الرأسمالية وهو الشيوعية وبالتالي انتهى الصراع.

إن هذه الفكرة تحتاج إلى تصويب فالصراعات لن تتوقف أبدا ولا يزال الشيء ونقيض الشيء موجودين ويحكمان وسيظلان يحكمان حتى ينتهي التاريخ، فالسنن الكونية هي السنن وسنة التدافع لن تتغير: "وسنن الله لا تحابي أحدا"⁽¹⁷⁾.

إن صراع الحضارات لم يعد مسألة نظرية ولكنها واقعية، فتركيا في سنة 2001 أصدرت قانونا -مر في هدوء ولم يلتفت إليه أحد- يفضي بتعديل قانون الأحوال الشخصية التركي وجاء صدوره بناء على طلب من الاتحاد الأوروبي باعتباره شرط من شروط قبول تركيا عضوا في الإتحاد الأوروبي وهذا التعديل في القانون يلغي قوامة الرجل على المرأة ويعطيها الحق في أخذ 50% من رصيد

⁽¹⁶⁾ عبد القادر رزيق المخادمي، النظام الدولي الجديد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة،

ص 113.

⁽¹⁷⁾ راجع مؤلفات الشيخ محمد الغزالي، خاصة كتابه: كيف نتعامل مع القرآن.

الرجل إذا حدث الطلاق، كما تغير قانون الموارث في تركيا بما يتفق مع القوانين الأوروبية حيث يساوي بين الذكر والأنثى فنحن أمام حرب ثقافية أساسها القوة والهيمنة.

إن الحديث عن نهاية التاريخ ونهاية الإيديولوجية ونهاية الدولة وسيطرة أمريكا على العالم قد أصبح من الماضي فعندما يشعر فوكوياما بأن أمريكا هي في تراجع وتقهر سيصاب بالدهشة وسيراجع مواقفه وطروحاته إن بقي على قيد الحياة.

أما الجانب الثاني في هذا الموضوع فهو صراع الحضارات، فقد أحدث بحق الكاتب "صموئيل هنتنغتون"⁽¹⁸⁾ أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد في بحثه صراع الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي The Clash of Civilisations and Remaking of World Organization ضجة عالمية مثلما أحدثه كتاب فوكوياما نهاية التاريخ The End of History بسبب أن الباحث يعتمد في بحثه على فكرة واحدة أحادية التفكير، وكان من المفترض تنويع الاتجاهات مثل ما كتبه "ارنولد تويني" و"ماكس فيبر".

فصموئيل هنتنغتون يعترف بتنوع الحضارات بصفة مشبوهة ويعتبر أن هذه الحضارات ستصطدم يوما ما، مثل: الحضارة الكونفوشية الصينية قد تتحد مع الحضارة الإسلامية ضد الحضارة الغربية!.

إن هذه النظرية الأمريكية تبحث عن المصالح الإستراتيجية الأمريكية وتبلي التعطش الأمريكي لإخضاع العالم مكتسحة كل العوائق القيمية والقومية والثقافية من جهة ملبية تطلعات التحالف المسيحي الصهيوني في دائرة سموها محور الخير والشر الأمريكي بين قوسين على الشر والذي يمثل كل ما هو إسلامي⁽¹⁹⁾.

ويذكر هنتنغتون صمويل في الفرق بين الحضارة والثقافة بقوله: "لقد وضع المفكرون الألمان في القرن التاسع عشر تمييزا حادا: بين الحضارة التي تتضمن

⁽¹⁸⁾ مسؤول التخطيط في الأمن القومي في عهد جيمي كارتر.

⁽¹⁹⁾ غالب كجك، قلق الغرب، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص78.

اشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

الآلات والتكنولوجيا والعوامل المادية، وبين الثقافة التي تتضمن القيم أو المثل والصفات الذهنية والأخلاقية الراقية في المجتمع⁽²⁰⁾.

ويعرف البعض الحضارة بأنها الجانب المادي من الثقافة ويرى هو شخصيا أي هنتنغتون صمويل أن الحضارة والثقافة كلاهما يشير إلى مجمل أسلوب الحياة لدى شعب ما، "فالحضارة هي الثقافة على نطاق واسع"⁽²¹⁾.

كما يرى صمويل هنتنغتون أن وسائل الإعلام والاتصال سوف تكون أهم أسباب النزاعات المستقبلية بالرغم من الجانب الإيجابي فيها وهو التقريب بين الأمم والشعوب ثم عولمتها. عن المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد (عالم ما بعد الحرب الباردة) لن يكون مصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا وستظل الدول (الأمم) هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن النزاعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين الأمم ومجموعات لها حضارتها المختلفة وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، وذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل وسيكون النزاع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور النزاع في العالم الحديث⁽²²⁾.

كما يرى هنتنغتون أن الثقافة هدف يموت الإنسان من أجله والدين عنده جزء من الثقافة، والخلافات الثقافية هي جزء من النزاعات الدولية التي تتطور إلى صراعات حضارية ثم صدامات، والنجاح الاقتصادي هو نتيجة للنجاح الثقافي. والعولمة في هذا السياق تسير لتشكّل ما يسمى "بنظرية التلاقي"، والتلاقي هو توحيد النماذج كلها بحيث تتبع نمطا واحدا، وقانونا عاما واحدا هو قانون التقدم والتطور، وبالتالي حتى الدراسات الثقافية والاجتماعية تدعو إلى النمطية الأحادية.

إن السؤال المطروح -حتى ولو افترضنا أننا مع العولمة في بعدها الثقافي

⁽²⁰⁾ نفس المرجع، ص 88.

⁽²¹⁾ ألان تورين، ترجمة صباح الجهميم، نقد الحداثة، وزارة الثقافية السورية، دمشق، 1998، ص 10.

⁽²²⁾ غالب كجك، نفس المرجع السابق، ص 70.

الذي تدعو إليه أمريكا: هل حافظت على الثقافة والتراث العراقي عندما قامت بغزوه؟ الشيء الوحيد الذي حافظت عليه هي وزارة النفط والباقي دمر تدميرا كاملا حتى تطمس معالم الهوية العربية الإسلامية...

إن معظم المجتمعات والشعوب تبدو غير مطمئنة إلى هذا الكم الكبير من المفاهيم والقيم وأفكار العولمة الثقافية التي تروج عبر الفضائيات، ومن خلال اخذ تقنيات الاتصال والمعلومات ومن ثم تمرير الثقافة الأمريكية كنموذج لثقافة عالمية ينبغي نشرها، ولم يحدث في التاريخ أن أصبح العالم مقبلا على رموز ومعطيات وسلع الثقافة الاستهلاكية كما هو مقبل عليها في الوقت الراهن، وقد ساعد هذا الثورة التكنولوجية في مجالات الاتصال التي جعلت العالم قرية واحدة وبالتالي ساعدت في توحيد كثير من الثقافات.

لقد ركزت النظرية النقدية الإعلامية والنظرية النقدية الثقافية على قضايا القوة والصراع والتغيير فقد رأى علماء هذه النظريات أمثال: جوامشي، ألتوسير، أدورنو، ريموند وليام، هيرمان وتشومسكي أن وسائل الإعلام والاتصال قوة موجهة تهدف إلى فهم الواقع الاجتماعي وإعادة تشكيله من الناحية الثقافية ليستطيع نظام الحكم السيطرة والاستمرارية.

فإن كان الصراع إبان الحرب الباردة صراعا عسكريا واقتصاديا فإن الصراع اليوم تم تشكيله وصياغته وفق صيغ ثقافية وإعلامية وحضارية.

الثقافة والاتصال والإعلام في ظل الثورة التكنولوجية:

إن التكنولوجيا عنصرها أساسيا في بنية حضارتنا الراهنة، خاصة تكنولوجيا الاتصال التي تربط بين الإنسان والمجتمع. ولعل العلاقة الجدلية التي بدأت بين الإنسان والأرض ثم انتقلت إلى الآلة ثم وسائل الاتصال حتى وصلت إلى المعرفة باعتبارها رمزا لسلطة جديدة آخذة في التشكيل، ومعياري جديد للبرقي والتحضري والنفوذ والقوة.

يرى نقاد الثقافة الجماهيرية أن مستقبل الثقافة سيكون مظلما طالما أوشكت ثقافة الكتب (وكل ما هو مكتوب) أن تفقد تأثيرها لحساب حضارة الصورة ذات المضامين الثقافية المختزلة في شعارات أو أقراص إعلامية سهلة الانتشار ولكنها ضحلة القيمة والمضمون، ولكن ثمة آراء أخرى ترى أن استخدام

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

الريموت كنترول علامة على تفعيل حق الاختيار المتاح للمتلقى للتنقل وقتما يشاء وبأقل جهد ممكن بين المحطات المتنوعة، وبالتالي فهو بمثابة وسيلة تكنولوجية مساعدة لتجاوز محدودية القدرات التفاعلية لجهاز التلفزيون، ولكن أيا كانت الآراء المعارضة أو المؤيدة فإن ثقافة شبكات المعلومات تبدو في هذا الصدد بمثابة ضوء ساطع لإزالة كافة البقع المظلمة في خريطة رسائل الاتصال الجماهيرية التقليدية وذلك انطلاقاً من أن الشبكات يمكن أن تسهم في ديمقراطية الثقافة، وفي التوازن والاحترام المتبادل بين الثقافات بحيث يتحول الاتصال إلى طاقة ثقافية تخدم الأهداف الفردية والعامة وتعمل على توفير فرص أكبر لمشاركة الجماهير في العملية الثقافية كما ستعمل على إلغاء الفوارق الطبقية لأنه لا يكون هناك كومبيوتر آخر داخل الشبكة (فيما يعرضه وليس كجهاز).

ولا يقتصر الأمر في مجال نقد تكنولوجيا الاتصال على المخاوف الواقعية ولكنه يمتد إلى المخاوف الوهمية، ويمتد ذلك فيما يعرف بظاهرة التكنوفوبيا حيث لا ينحصر الخوف المرضي من التكنولوجيا بين جموع البسطاء ذوي الثقافة المحدودة الذين ينفرون من استخدام الأجهزة الحديثة بل يمتد أيضاً إلى الإداريين وصناع القرار الذين يرفضون تغيير أساليب العمل التقليدية والاستفادة من إمكانيات الأجهزة الحديثة نتيجة هذا الشعور المرضي وقد تولدت عن هذه الآراء اتجاهات فكرية حول تكنولوجيا الاتصال تتمثل في:

أولاً: نظرية الحتمية التكنولوجية: (التفسير التكنوأتصالي للتاريخ)

يعد العالم والمفكر الكندي مارشال ماكلوهان MARSHALL McLuhan صاحب النظرية الحتمية التكنولوجية، حيث عرض آراء وأفكار هذه النظرية عام 1962 في كتابه: "مجرة غوتنبرغ" (نشوء الإنسان الطباعي) حيث قسم التاريخ الإنساني إلى أربعة مراحل⁽²³⁾:

أ. مرحلة طفولة البشرية: وهي فترة ما قبل الحضارة أي عصر المجتمع القبلي الذي كان يعتمد على الاتصال الشفهي.

ب. مرحلة الشباب الأول البشرية: وهي فترة الانتقال إلى عصر الكتابة والتدوين.

(23) محمد محفوظ، نفس المرجع السابق، ص 47.

ج. عهد الشباب الثاني: وهي الفترة التي بدأت باختراع غوتنبرغ للحروف الطباعية المعدنية المتحركة.

د. عهد الشباب الثالث: وهي الفترة التي بدأت بظهور التقنيات الالكترونية وبالذات مع ظهور التلفزيون.

من خلال هذه المراحل الأربعة يفسر "ماكلوهان" مجمل تاريخ البشرية من خلال تطور وسائل الاتصال، حيث يرى أن البشرية ما هي إلا نتاج لحتمية تكنولوجية تدفعنا بالقوة نحو المستقبل، ففي الحقبة الأولى من تاريخ البشرية (حقبة الأمية) استخدم البشر كل حواسهم بالتساوي للاتصال ببعضهم البعض "اللمس، البصر، السمع والشم" وبالتالي لم يكن هناك تسلسل أو أولوية بين حواسنا مما أدى إلى أن تستوعب البشرية التجربة الكلية للبيئة التي نعيش فيها والتي أصبحت مجرد قرية كونية global village تحكمها ثقافة قبلية.

أما في الحقبة الثانية فقد تجاوزت البشرية مرحلة الأمية وانتقلت إلى مرحلة الاتصال عن طريق الرموز من خلال اختراع الكتابة التصويرية وتطويرها إلى الكتابة الأبجدية الألفبائية. وقد أدى وجود الحروف الهجائية إلى حدوث خلل في نظام الإدراك الحسي عند الإنسان ينبع من الطبيعة البصرية التي أضفتها الحروف على الاتصال الإنساني حيث أصبح الاتصال الإنساني يقدم على أساس سطور وخطوط ذات بعد واحد مما أدى إلى أن يتسم تفكير الإنسان بالسطرية أو الخطية، وبالتالي حلت محل الثقافة القبلية ثقافة فردية يمكنها تحقيق الاتصال بالآخرين دون حضورهم.

أما الحقبة الثالثة: حقبة اختراع الحروف الطباعية المعدنية المتحركة، فقد ازداد تقييد الإنسان بالطبيعة البصرية التي أضفتها السطور الطباعية على تفكيره انطلاقاً من الانتشار الواسع لهذه التكنولوجيا الجديدة بحيث أصبحت وسائل الطباعة بمثابة النظارة الواقية التي ننظر من خلالها إلى المجتمع وبالتالي أدت إلى تكريس نظرتنا ذات البعد الواحد ونظرتنا الخطية للعالم، الأمر الذي أدى إلى ظهور تكنولوجيا مصانع خطوط الإنتاج.

اشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

أما الحقبة الالكترونية فقد دفعت الجنس البشري إلى عمليات اتصال عديدة وجديدة حيث قامت الوسائل الجديدة مثل الراديو والتلفزيون والكومبيوتر بربط الدول والثقافات بشكل غريزي وفوري، الأمر الذي أوضح بأن البشرية قد دارت دورة كاملة حول نفسها لتعود من حيث بدأت إلى عصر القرية العالمية التي ينصب فيها كل فرد إلى نفس الطبول القبلية القديمة.

ثانياً: نظرية المجتمع بعد الصناعي: (مجتمع المعلومات)

تعود نظرية المجتمع بعد الصناعي أو (مجتمع المعلومات) إلى المفكر الأمريكي "دانييل بيل" Daniel Bell، وجاءت الصياغة الأولى لهذه النظرية عام 1973 في كتابه: "المجتمع بعد الصناعي المقبل"، وازدادت وضوحاً في مقاله المنشور عام 1981 بعنوان "الإطار الجماعي لمجتمع المعلومات"، حيث يقسم دانييل تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل:

أ. مرحلة المجتمع قبل الصناعي: وهي المرحلة التي كان الإنسان يتعامل فيها مع الطبيعة: الأرض، الماء، والغابات، وكان هذا التعامل يتم من خلال مجموعات صغيرة من البشر.

ب. مرحلة المجتمع الصناعي: وهي المرحلة التي صار الإنسان يتعامل فيها مع الوسط الصناعي، حيث يحتجب الإنسان وراء الآلات المنتجة للبضائع.

ج. مرحلة المجتمع بعد الصناعي: (مجتمع المعلومات) وهي المرحلة التي أصبح الإنسان يتعامل فيها مع الإنسان، بحيث يتم استبعاد الطبيعة ويتعلم الناس العيش بعضهم مع البعض.

ويرى دانييل بيل أن مجتمع المعلومات هو ثمرة لتكنولوجيا الحاسب الآلي التي امتلكت القدرة على تغيير المجتمع وبناءه الأساسية بكاملها بحيث صار الحاسب الآلي يمثل رمزا وتجسيدا ماديا للثورة التقنية المندلعة، وبالتالي فمثلاً قامت الكهرباء بتغيير الحياة الاجتماعية كلها في النصف الثاني من القرن الماضي، قام الحاسب بقيادة التجديدات الحالية في المجتمع المعاصر.

ثالثاً: نظرية المجتمع التليماتي: (مجتمع التليماتيك) يشير مصطلح المجتمع التليماتي إلى المجتمع الذي تترابط فيه كل من وسائل الاتصالات والإعلام

والمعلوماتية في بنية اتصالية واحدة.

وتتبلور نظرية المجتمع التليماتي في كتابات كل من المفكر الفرنسي "بنياتوفيسكي" والمفكر الأمريكي "ج مارتن" وكان بنياتوفسكي قد استخدم مصطلح التليماتيك" في كتاب صدر له عام 1978 واعتبر المجتمع التليماتي بمثابة مرحلة أكثر رفعة وارتقاء بالمقارنة مع كل من المجتمع الرأسمالي، والمجتمع الاشتراكي، وذلك انطلاقاً من زيادة حجم الذاكرة ومضاعفة وتحديث نظم المعلومات وما يترافق مع ذلك من تغييرات في نماذج وموديلات السلطة، مما يشكل قفزة حضارية يمكن مقارنتها بالقفزة الحضارية في مرحلة ما بعد اختراع الكتابة.

أما "ج مارتن" فقد دعا في كتابين صدرتا له عامي 1978 و1981 الأول بعنوان "المجتمع السلبي"، والثاني بعنوان: "المجتمع التليماتي (تحدي المستقبل)" دعا إلى تطوير ما نعرفه بالتلفزيون التفاعلي بحيث تصبح ردود فعل جماهير المتلقين مأخوذة في الحسبان، الأمر الذي يخفف من الاحتمالات الانفجارية انطلاقاً من توفير وسيلة للجماهير للتعبير عن عدم رضاهم، وتوفير وسيلة للسلطات لقياس عدم الرضى لدى الجماهير.

ويرى مارتين أن مجتمع التليماتيك في جانبه السلبي يمكن أن يتحول إلى فاشية معلوماتية في ظل هيمنة الدولة على كم كبير من المعلومات الخاصة المتعلقة بالجماهير، كما يمكن أن يتحول في جانبه الإيجابي إلى مجتمع رقمي مثالي توفر فيه التكنولوجيا كافة وسائل الرفاهية.

رابعاً: نظرية الموجة الثالثة وتحول السلطة

تنتهي نظرية الموجة الثالثة وتحول السلطة إلى المفكر الأمريكي المستقبلي "ألفين توفلر" وقد تبلورت رؤية "توفلر" في كتبه الثلاثة الشهيرة:

- الأول بعنوان: صدمة المستقبل The Shock of Future صدر عام 1970.
- الثاني بعنوان: الموجة الثالثة The Third Waves صدر عام 1980.
- الثالث: بعنوان: تحول السلطة صدر Transformation of Power عام 1990.

ويرى "توفلر" أن حضارات العالم مرت بثلاث موجات هي:

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

أ. حضارة الموجة الأولى: وهي حضارة الثورة الزراعية التي بدأت عام 8000 ق.م تقريبا.

ب. حضارة الموجة الثانية: وهي حضارة الثورة الصناعية التي بدأت تقريبا في الفترة من 1650م إلى 1750م.

ج. حضارة الموجة الثالثة: وهي حضارة المعلومات والمعرفة والتي بدأت تقريبا عام 1955م.

ويرى "توفلر" أن حضارة الموجة الثالثة أدت إلى إعادة ترتيب لأولويات السلطة التقليدية في عالمنا المعاصر، فتاريخيا كانت هناك دائما ثلاثة وجوه للسلطة تتمثل في القوة والمال والمعرفة.

ولكن ظلت دائما الأولوية في العصور الماضية للقوة العسكرية ثم تحولت عقب ذلك للارتكاز على الإمكانيات الاقتصادية، ثم انتقلت في عالمنا المعاصر لكي تعتمد على القدرات المعرفية، وبالتالي يرى "توفلر" بأن التقدم الفائق في تكنولوجيا الاتصال يقدم المعرفة باعتبارها السلطة ذات الأولوية في عالمنا المعاصر.

الثقافة والاتصال ومسألة السيطرة الثقافية:

في دراسة (اليونسكو) التي أشرف عليها (شون ماكبريد) حديث مستفيض عن الدور الثقافي لوسائل الاتصال وجاء فيه أن الاتصال يؤدي دور الناقل الأساسي للثقافة ووسائل الاتصال هي أدوات ثقافية تساعد على دعم المواقف أو التأثير فيها، وعلى حفز وتعزيز ونشر الأنماط السلوكية وتحقيق التكامل الاجتماعي، وهي تلعب أو يتعين عليها أن تلعب دورا أساسيا في تطبيق السياسات الثقافية، وفي تيسير إضفاء طابع ديمقراطي على الثقافة، وهي تشكل بالنسبة لملايين من الناس الوسيلة الأساسية في الحصول على الثقافة وجميع أشكال التعبير الخلاق، كذلك؛ فللاتصال دور في تدبير شؤون المعرفة وتنظيم الذاكرة الجماعية للمجتمع، وبخاصة جمع المعلومات العلمية ومعالجتها واستخدامها، وهو يستطيع -احتمالا على الأقل- إعادة صياغة القالب الثقافي للمجتمع، ومع ذلك ففي هذا المجال كما في سائر المجالات، فإن التطور السريع للتكنولوجيا الجديدة ونمو البنى المصنعة

التي تستمد سيطرتها على الثقافة وعلى الإعلام يخلق مشكلات وأخطارا⁽²⁴⁾.
وبينت الدراسة أن المسؤولية الملقاة على عاتق وسائل الإعلام الجماهيرية
مسؤولية هائلة، ذلك أنها لا تقوم بمجرد نقل الثقافة ونشرها بل بانتقاء محتواها
أو ابتداعه.

ومن أهم الأخطار التي اكتسبت أبعادا كبيرة و أثارت نقاشات حادة ما يتعلق
بمسألة السيطرة الثقافية، التي تتخذ شكل الاعتماد على نماذج مستوردة تعكس
قيما وأساليب حياة غربية، وتعرض الذاتية الثقافية للخطر من جراء التأثير
الطاغي للأمم القوية على بعض الثقافات القومية واستيعابها، رغم أن الأمم
صاحبة هذه الثقافات الأخيرة هي وريثة ثقافات أقدم عهدا وأكثر ثراء وحيث أن
التنوع والتباين هما من أهم خصائص الثقافة وأقيمها، فإن العالم بأسره هو
الخاسر من جراء هكذا تنميط ثقافي وهوياتي يطال الأمم والمجتمعات الصغيرة من
لدى الثقافات القومية والعالمية⁽²⁵⁾.

وهذه -السيطرة الثقافية- أشار إليها الدكتور "أحمد مجازي" وهو يتحدث
عن بلورة ثقافية عالمية: تتسم بسمات خاصة تستفيد منها الفئات المسيطرة على
العمليات الاقتصادية والسياسية والإعلامية، حيث تحتكر التقنية والإنتاج
الإعلامي على المستوى العالمي، ولا شك أن ذلك من شأنه تشكيل نمط محدد من
الوعي الثقافي، وفرض نماذج وفلسفات غربية من خلال إنتاج وتوزيع واستهلاك
المواد الإعلامية والاتصالية. إذ تعتبر المعلومات في عصر ما بعد الحداثة عبارة عن
مادة خام تستخدم في الصناعات، وأصبح من يمتلك المعلومات هو من يتحكم في
زمام القوى، وهذا ما تسعى إليه الشركات المتعددة الجنسيات والتي من بينها 24
شركة تسيطر على قطاع الاتصال المعلوماتي والترفيهي في العالم، منها 4 شركات
كبرى تسيطر على 80 بالمئة من التدفق الإخباري في العالم وهي: رويتر، أسوسيتد
بريس يونايتد بريس، وكالة الأنباء الفرنسية وأتاتارس الروسية، وهذا من خلال
توزيعها لحوالي 32 مليون كلمة في اليوم إضافة إلى الصور، وهكذا أضحى التدفق

⁽²⁴⁾ تيسير أبو عرجة، الإعلام والثقافة العربية، ص 113، 114.

⁽²⁵⁾ نفس المرجع، ص 114.

اشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

الإخباري والإعلامي تبادلًا رأسيًا، باتجاه واحد ووجهة نظر واحدة تعبر عن رأي القوى المسيطرة فقط، مما يؤثر على طرق تفكير الجمهور، وهذا ما تفسره نظرية وضع الأجندة لـ "ماكومبز" و"شو" والتي ترى بأن أجندة وسائل الإعلام تؤثر على أجندة الجمهور فالأخبار يمكن أن لا تنجح في إجبار الناس على تبني طرق معينة في التفكير، أي كيف يفكرون، ولكنها تنجح في تحديد مجال القضايا التي يفكرون فيها، وتتشكل أجندة الجمهور من خلال الوسيلة التي يعتمدون عليها أكثر في استقاء معلوماتهم، وهذا ما أثبتته دراسة "تيكينور" و"واكمان" سنة 1973 والتي تهدف إلى قياس مدى معرفة الناس بالخلاف المتعلق بموقع صرف المياه المحلية، وكانت النتيجة أن ما يصدقه الناس حول هذه القضية يرتبط بخط الصحيفة التي يقرؤونها.²⁶

وتظهر خطورة الإحتكار الإعلامي من قبل الشركات متعددة الجنسيات بإحلال عصر التخطي المعلوماتي للحدود القومية حاملا معه ظاهرة ثقافة عابرة للقوميات.

وقد بين الأستاذ "مانكيكان" في دراسة بعنوان "تدفق المعلومات بين الدول المتقدمة والنامية" خطورة الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام الأمريكية في السيطرة الثقافية العالمية قائلا: "وبفضل تحكمها في التقنية الحديثة والإنجازات المذهلة التي حققتها الثورة الإلكترونية" فقد نجحت الولايات المتحدة في تطوير ما أصبح يعرف باسم -صناعات المعرفة والإعلام- التي نجحت صادراتها الثقافية البالغة القوة والتأثير في تحويل التدفق الحر للمعلومات في اتجاه واحد-أي من الدول المتقدمة إلى الدول المتخلفة-"⁽²⁷⁾

وتفيد الإحصائيات بأن خمسة وستين في المائة (65%) من الأخبار والمعلومات التي يتم تداولها في العالم بشكل أو بآخر يرد من الولايات المتحدة الأمريكية وأن سير المعلومات. يمضي في اتجاه واحد من الدول المتقدمة إلى الدول النامية -كما أسلفنا- وبذلك تواصل الولايات المتحدة سيطرتها على العالم وتلك

²⁶ Jian-Hua Jonathan Zhu and Deborah Blood, Media Agenda-Setting Theory: Review of 25 year Research Tradition, p.p 97-101.

⁽²⁷⁾ نفس المرجع، ص 115.

هي المفارقة المثيرة للسخرية فيما يتعلق بحرية الإعلام وأكثر الأدوات التي تستخدمها واشنطن فعالية لتحقيق هذه الغاية هي وسائل الاتصال الالكترونية والهيئات المتعددة الجنسيات لكي تنشر أسلوب الحياة الأمريكية وثقافة المال والتجارة⁽²⁸⁾.

خاصة وأن صناعة الاتصال تحتل مكانا بارزا بين الصناعات الأخرى، وهي تحتوي كما يقول -ماكبرايد- على ما يمكن أن يسمى -صناعة الثقافة-. بمعنى أنها تعيد إنتاج أو نقل منتجات ثقافيه أو أعمال فنيه وثقافيه بالوسائل الصناعية وكانت مصادر انتفاع الناس بأعمال الإبداع الثقافي في بدايات القرن العشرين مقصورة بصفة عامة على مجال بيع الكتب. والمكتبات والمتاحف والمسارح وقاعات الموسيقى، أما اليوم فإن منتجات الثقافة من كتب وأفلام وتسجيلات وبرامج تلفزيونية تصل غالبا إلى جمهور يعد بالملايين.

وقد أوضح الدكتور "السيد عليوة"؛ وهو يحلل ظاهرة البث المباشر عبر الأقمار الصناعية من زاوية تأثيره على المشاهد العربي، أن الجوانب الإيجابية لهذا البث تتمثل فيما يلي:

1- تجديد الثقافة الوطنية الراكدة في بعض الأحيان بتطعيمها بنماذج وتطلعات عصرية (الحتمية التكنولوجية)⁽²⁹⁾ جديدة تتعلق بالإبداع أو الأداء الرفيع والإيقاع السريع مع تشجيع التبادل الحضاري ونشر التسامح الثقافي بين الأمم والشعوب.

2- تطوّر وسائل الاتصال المحلية وبالذات التلفزيون حيث تفرض عليها المنافسة مع القنوات العالمية ضرورة تحديث أساليبها.

3- اختفاء فكرة السيادة الإعلامية التي كانت تتمسك بها الدول الأمر الذي سوف يثير قلق الحكومات الاستبدادية والنظم العنصرية وانتشار الخوف المرضي من التكنولوجيا أو ما يسمى بـ (التكنوفوبيا)⁽³⁰⁾ لأنه يتضمن مزيدا من الدعوة إلى التحرير والانطلاق كما سوف يزود الناس بالمزيد من المعلومات التي تساعد

⁽²⁸⁾ نفس المرجع، ص 115.

⁽²⁹⁾ محمد محفوظ، نفس المرجع السابق، ص 46.

⁽³⁰⁾ نفس المرجع، ص 55.

إشكالية الاتصال الثقافي في عصر العولمة

على حرية الاختيار.

وتتمثل الجوانب السلبية فيما يلي :

- 1- تشكيل العقول والتلاعب باتجاهات الرأي العام وتوجيه رغبات بما يتفق مع السياسات ومصالح أصحاب هذه المحطات من الدول الصناعية الغربية (وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية) وغيرها من رجال الأعمال.
 - 2- حقن الوجدان القومي بقيم ومعايير وسلوكيات قد لا تتفق مع الثقافة التقليدية الأمر الذي سيمهد للنسيج الاجتماعي.
 - 3- إشاعة الميول الاستهلاكية المهمة والرغبة في التقليد والمباهاة (إنسان السوق إنسان الربح والخسارة لا إنسان القيم والمبادئ).
 - 4- تركيز بعض المحطات الإخبارية في الولايات المتحدة الأمريكية بجذب اهتمام المشاهد في تقديم الأخبار بعيدا عن المجرى الصحيح أو الحقيقي للأحداث بغرض الإثارة والتشويق والملاحقة.
 - 5- التهديد الذي تمثله وكالات الإعلان العالمية بما تفرضه من أساليب إعلانية غريبة رأت فيها -اليونسكو- تهديدا للذاتية الثقافية والتحقيق الذاتي لكثير من البلدان النامية، فهي تعرض على جماهير غفيرة قيما أخلاقية أجنبية، وقد تحول طلبات المستهلكين في البلدان النامية إلى مجالات استهلاكية قد تعوق أولوياتها الإنمائية، وهي تؤثر في أنماط المعيشة وأساليب الحياة وكثيرا ما تشوهها، فضلا عن ذلك فإن تهديد المصالح الخاصة أو الحكومية بحسب إعلاناتها قد تشكل تهديدا لحرية الصحافة.
- وهو نفس ما أشار إليه الدكتور "محمد السيد محمد" في كتابه "الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر" حيث يقول: إن وسائل الإعلام في الوطن العربي قد انزلت انزلاقا واضحا في سلبيات الإعلان، وانعكست الأشكال الغربية للإعلان على الإعلان في العالم العربي بدرجات مختلفة.
- وقدم الدكتور " محمد شومان" تحليلا لأثار "عولمة الثقافة والإعلام" على الواقع الاتصالي والثقافي في النظام الإعلامي العربي عبر عنه بـ (عدم التوازن في انتشار تكنولوجيا الاتصال الجماهيري) قائلا: إن وسائل الإعلام في بعض الدول

العربية ما زالت عاجزة عن استيعاب التطورات التكنولوجية المعاصرة واستخدامها وملاحقتها وعن توفير الكوادر الإعلامية الوطنية التي تفي باحتياجات الإنتاج كما ومضمونا وشكلا والملفت للانتباه أن الفجوات بين الدول العربية أو داخل كل قطر تتسع فيما يتعلق باستخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة أو وسائل الاتصال غير التقليدية كالانترنت وهو ما قد يرتب آثارا وتداعيات اجتماعية وثقافية خطيرة، كما أن التبعية الإعلامية العربية للإعلام الغربي من حيث استيراد مضامين إعلامية ترفيهية دون مراعاة للثقافة المجتمعية وخصوصيات الأقطار العربية والإسلامية يمثل خطرا أكبر على الهوية الوطنية⁽³¹⁾.

استنتاجات :

وكما جاء في المادة رقم 52 من إعلان مبادئ بناء مجتمع المعلومات الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات (جنيف 10-12 ديسمبر 2003) أن " التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية جمعاء. وينبغي أن يقوم مجتمع المعلومات على أساس احترام الهوية الثقافية والتنوع الثقافي واللغوي والتقاليد والأديان، وأن يعزز احترام هذه المفاهيم، وأن يشجع الحوار بين الثقافات والحضارات ومن شأن تعزيز وتأكيد الهويات الثقافية المتنوعة واللغات المختلفة والحفاظ عليها، كما جاء في الوثائق المعتمدة ذات الصلة الصادرة عن الأمم المتحدة، بما في ذلك إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي، أن يدعم إثراء مجتمع المعلومات".³²

⁽³¹⁾ تيسير أبو عرجة، نفس المرجع السابق، ص 119.

³² محمد فتحي عبد الهادي، مجتمع المعلومات بين النظرية والتطبيق، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2007) ص 237.